



تناولت وسائل الإعلام الأمريكية والروسية، خلال الأسبوع، تصريحات فلاديمير بوتين التي تصف دونالد ترامب باللامع والموهوب والمنافس الأبرز على الرئاسة الأمريكية، وردود ترامب الذي رحب بهذه الإطراءات وقابلها بمثلها. وكان ترامب قد دعا الولايات المتحدة إلى تأييد التدخل الروسي في سوريا، والتعاون مع روسيا في مكافحة الإرهاب.

ليس هذا الغزل بين رجل المخابرات ورجل الأعمال محض مصادفة بريئة، كالحب من أول نظرة. لقد التقى بوتين مع ترامب في سوريا. وعلى الأرضية نفسها، التقت معهما ماري لوبين الفرنسية، وبقية أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا. والقاسم المشترك الأعظم لليمين الجديد في الحالة هذه هو ديماغوجيا العظمة الوطنية والدولة القوية، والاعتقاد الراسخ بعدم ملاءمة الديمقراطية لغير المجتمعات الغربية، وتفهم الحاجة للاستبداد في المشرق، والسلطوية في روسيا نفسها، وضرورة التعاون مع الدكتاتوريات، لأسباب متعلقة بالمصلحة الوطنية للدولة الغربية، واعتبار كل ما يتحدى السلطة في الشرق إرهاباً، سواء أكانت سلطة استعمارية أم احتلالاً أجنبياً، والتضييق على الهجرة الواردة، واستخدام الخوف من الإسلام والمسلمين ديماغوجياً للفوز بالأصوات. يضاف إلى ذلك أن جميع هؤلاء السياسيين معجبون بإسرائيل ونتنياهو الذي يشبههم.

يمثل ترامب نمطاً من السياسيين الشعبيين الذين لا يلائمون خطابهم لعقلية البسطاء، خلافاً لما يبدو، بل إن خطابهم يعبر عن عقليتهم فعلاً، فلا يحتاج المرء إلا ذكاءً خارقاً وثقافةً واسعةً للنجاح في مجالات، مثل العقارات والمخابرات. يبدو الخطاب بسيطاً حالياً من التعقيد، يقسم العالم كما يقسّمه خلآن الشراب في حانة أمريكية متوسطة، تارةً بين أخيار وأشرار، حين يكون المزاج محظياً ضد الآخر، وطوراً بين ناجحين وفاشلين، أو فائزين وخاسرين حين يكون المزاج رائقاً.

ويحقر هؤلاء المثقفين الذين "يعقدون الأمور"، ويقبلون الخبراء التقنيين، والعلماء في العلوم الطبيعية، لكنهم ينظرون إليهم مجرد أداة في السيطرة على الطبيعة والعالم. ولا يستحسنون تنظيراتهم الأخلاقية حول السلاح النووي والبيئة وغيرها؛ كما ينظرون إلى الليبراليين مجرد منافقين، ويعتبرون رفع أي قيمة إنسانية فوق السياسة إضعافاً للروح الوطنية، وتقييداً للأخيرة في المواجهة مع الأعداء.

ويسهل الإعلام الجماهيري المهمة على هذا النمط من السياسيين، كأنه صمم من أجلهم. فالمطلوب، في عرف هذا الإعلام، هو الإثارة التي لا تدخل بها تصريحات هؤلاء، والسرعة والبساطة في الطرح التي تحول الخطاب إلى برقيات حادة مكررة. المطلوب هو الديماغوجيا. كما أن هذا الإعلام يقدس النجاح بحد ذاته كقيمة، ويعتبر النجمية قمة النجاح. وهذا هو الشكل الذي يلائم خطاب هؤلاء السياسيين تماماً.

في الماضي، كان مثل هؤلاء الساسة الشعبيين الذين تنتجهم السياسة الغربية في عصر انحطاط التنافس الديمقراطي، بتأثير المال والإعلام الاستهلاكي، يناهضون سياسة الانفراج الدولي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، ويبثون رسائل تهديد ضد الشيوعية وتمددها، أما اليوم فيلتقطون على العداء للإسلام والمسلمين. وهم يلتقطون في ذلك مع أحد أبرز وجوه اليمين المتطرف الجديد في عالمنا المعاصر، وهو الرئيس الروسي فلاديمير بوتين.

وهذا الأخير ليس يمينياً جديداً، بمعنى تجدد اليمين في الغرب وتعديلاته خطابه بموجب متطلبات الحياة الdemocraticية وإنجازاتها، كما فعلت ماري لوبين حين عدلت خطاب والدها، ومثلاً ما يفعل اليمين الألماني بتقبل بعض مسلمات حركات السلام والدفاع عن البيئة.

فليست في روسيا إنجازات ديمقراطية مسلم بها، أصبحت بديهيات اجتماعية وسياسية، بحيث تضطره لأن يعدل خطابه بموجبهما؛ بل يمثل خطاب بوتين مزيجاً بين عودة إلى الخطاب الروسي القومي المستمد من ذكريات الدولة العظمى من ناحية، وتبنيًّا متآخراً لقيم الرأسمالية الأولى، رأسمالية القرن التاسع عشر التي لا تحترم حقوق الإنسان وتلوث البيئة بدون ضوابط وتحلل التوسيع الاستعماري، وترى السياسة الدولية مجرد صراع على مناطق النفوذ.

إنه، إذًا، تحالف بين اليمين المتطرف الجديد، في ظروف الرأسمالية المتأخرة، والسياسة الروسية التي تحفي نمط اليمين القومي الذي كان قائماً في أوروبا في بداية القرن الماضي.

العربي الجديد

المصادر: